

# قضية التأثير والتأثر

# تمهيد

- ليس من السهل ، ونحن نبحت قضية التأثير والتأثر ، أن نصل إلى نتائج علمية حاسمة ؛ لأن مشكلة التأثير والتأثر من المشكلات الشائكة التي يصعب علاجها ، وخصوصاً إذا كانت تتناول موضوعاً مضى عليه مئات السنين .
- وربما كانت قضية التأثير الأجنبي بالدرس اللغوي عند العرب أسهل تناولاً من قضية التأثير الأجنبي وأقوى أدلة ؛ لأن التأثير قد تم في فترة متأخرة نسبياً ، ولأن الأمثلة والشواهد على وجود هذا التأثير كثيرة ، وشبه قطعية .
- ويجب أولاً ، وقبل أن نبدأ دراستنا لهذه القضية أن ننبه إلى أمرين :
  ١. أنه لا يصح – حين يجد الباحث تشابهاً بين عمليتين – أن يُعَوَّل على مجرد السبق الزمني ، ويتخذ دليلاً على تأثير السابق في اللاحق . فالعقل البشري هو العقل البشري في أي بقعة من أنحاء العالم ، وما يهتدي إليه المرء في بلد قد يهتدي إليه آخر في بلد آخر دون أن يطلع على ما انتهى إليه غيره . وقد يتشابه العاملان أو يتطابقان ، ويظل كل منهما أصلاً في ذاته .

- ٢. أن كثيرًا من الأحكام التي أُطلقت حول قضية التأثير والتأثر قد أثبتت الأيام خطأها –أو على الأقل قدمت ما يشكك فيها .

# احتمالات التأثير الأجنبي في الأصوات

- هناك احتمال – مجرد احتمال – بوجود تأثير هندي صوتي على الخليل لا يتجاوز الترتيب الصوتي للحروف الهجائية مع البدء بأعمقها مخرجاً ، ولا يصح أن يُبالغ في مدى هذا التأثير على نحو ما ، فيقال مثلاً إن هناك تأثيراً صوتياً بوجه عام على اللغويين العرب للأسباب الآتية :
  ١. أن الترتيب الصوتي عند الخليل – وغيره من اللغويين العرب – يختلف اختلافاً كبيراً عن ترتيب الهنود ، فقد ضمت الألفباء الهندية ٥١ حرفاً ، وبدأت بالعلل ( بدأ الخليل بالسواكن ) واشتملت على رموز للعلل القصيرة ( لا توجد في الألفباء العربية ) ، وعلى رموز للعلل البسيطة والمركبة ( لا رموز للعلل المركبة في العربية ) ، ووضعت أصوات الصفير في آخر الحروف الساكنة ( ما يقابلها وهو ص-س-ز قد وضع في مكان وسط ) واعتبرت الأصوات ي-ر-ل من أشباه أصوات العلة ( في حين أن الياء وضعت مع أحرف العلة في ترتيب الخليل ، وفصلت الياء عن اللام والراء بالضاد في ترتيب ابن جني )

- ومعنى هذا أن الخليل وإن كان من المحتمل أن يكون قد سمع بالترتيب الصوتي الهندي فقد خالفه حين التطبيق . ويبدو أنه اهتدى بذوقه وحسه الفطري إلى الترتيب الذي توصل إليه .

٢. أن دراسة الهنود للأصوات قد تميزت بوضع مقاييس محددة لأصوات اللين ، وتحديد وظيفة التجويف الحنجري ، ودور الأوتار الصوتية في إحداث الجهر والهمس ، كما تميزت بدراسة المقطع ، ومواضع النبر ، ولا نجد لهذا نظيرا عند اللغويين العرب .

٣. أن الهنود كانوا ينظرون إلى الدراسة الصوتية على أنها فرع مستقل من فروع علم اللغة ، في حين أن اللغويين العرب اعتبروها دراسة تابعة . وأول مؤلف مستقل في الأصوات عند العرب لم يظهر إلا على يد ابن جني في القرن الرابع الهجري .

- تظهر أصالة الخليل في معجم العين فيما يأتي :

- أ- جمعه المادة اللغوية بالطريقة الإحصائية ، مع حرصه على الشمول .

- ب- التقسيم الكمي الذي اتبعه ، و تفريقه بين الصحاح والعلل .

- ج- شرحه الكلمات شرحا دقيقا ، والاستشهاد عليها بالقرآن والحديث والشعر .